ملامح الأدب الثوري في العراق

بقلم محيي الدين اسماعيل

علينا هنا ان نحدد الخصائص العامة للادب الثوري في العراق ، وان نشير الى معالمه الرئيسية دون تفصيلاته . ولنا ان نتبين وجهته العامة الراهنة ، اذ نحن لانستطيع ان نتنبأ بالاتجاهات الفكرية المقبلة في اي ادب من الاداب ، طالما لم يستطع احد بعد ـ وقد لا يستطيع ـ ان يستكشف القوانين التي تتحكم بالانواء الفكرية ، ليشير الى اتجاهاتها وتناوحها ، كما يشار اليوم للانواء الجوية في الارصاد العلمية الحديثة .

على ان الحقيقة التي نستطيع ان نتبينها من خلال دراستنا للادب العربي المعاصر في العراق ، هي هذا الالتزام الصارم الذي اخذ الاديب العراقي به نفسه ، والذي تحول ، فيما بعد ، الى تمرد أو ضرب من النزوع الثوري الذي يتخذ شكل « توقع » حينا ، وشكل « قوة دافعة » حينا اخر ، وشكل رغبة في قلب المجتمع ، بما فيه من اوضار واوجاع وأوصاب ، في معظم الاحيان .

ولس لنا ان نؤكد هنا ، او نناقش ، البديهية القائلة بأن الادب الثوري في العراق ، جزء لايتجزأ من الثورة الفكرية في اطارها العربي العام ، والتي هي ثورة وتمرد ورغبة في القلب والتصفية ، بقدر ماهي تطور عضوي ، متصل غير منفصل .

ولكن كيف تطورت هذه الثورة وتبرعمت ؟ وما تفسير ظهورها في هذه المرحلة ؟

لا قراءة التاريخ السياسي ، ولا الفساد في الادارة والجيش ، ولا الافطاع والانحطاط الخلقي ، ولا رذائل المجتمع ، ولا البربرية الضاربة التي عوملت بها الشخصية العربية في العراق وحدها ، كل ذلك ليس بوسعه ان يفسر لنا تمرد الفكر العربي وليس بمقدور ذلك على اية حال ان يفسر لنا ظهور الادب الثائر وجرأته على اقتحام ميدان النضال .. ان جميع الاسباب والمسوغات والمعاذير التي يضعها المؤرخون والنقاد التقليديون لاتستطيع ان تفسر لنا الحماس الثوري في العراق ، ووعي العربي العراقي لذاته ، ان نحن اغلقنا على « الشخصية العراقية » فوقعة الذات العراقية ، وعزلناها عن مسارب التاريخ الحيوي للعراق ، أ ي ان نحن امسكنا الباب على العراق ، وعاملناه باعتباره تجربة متكاملة ، بمعزل عن الكيان العربي العام .

ولا ريب ان هناك طائفة من المؤرخين والنقاد الذين تسحرهم الالفاظ والمصطلحات ، لا الحقائق الصلبة الصلدة قد دأبوا على تفسير الاوضاع الادبية في العراق ، وفي اي قطر عربي اخر ، تفسيرا موضعيا محليا ، مع اضافة بعض الاجواء الغريبة التي تضفيها اوهام الالفاظ والمصطلحات التي لاعلاقة لها بالنطاق الكياني الحقيقي للشخصية العراقية ـ العربية .

فالتفسير الاكثر اصالة من ذلك كله ، هو ان نعتبر هذه المرحلة الثورية التي يمر بها الادب العربي في العراق مرحلة موصولة الحلقات مع المراحل التي سبقتها ، وانها ليست محض ردود أفعال لتيارات اجنبية عارضة . مع اننا نؤمن ان هاتيك التيارات كانت ، وما تزال ، من عوامل الاثراء والاخصاب والتعميق في الادب العربي في العراق وغيره من الاقطار العربية ، الا انها ليست هي الروافد الاصيلة التي تفجرت عنها هذه الارتجاعات الفكرية الحديثة التي تتسم بسمة الثورة والتمرد اليوم .

ففي بعض أدوار التاريخ فترات ، يستشعر فيها الادباء والمفكرون ان شعوبهم مقبلة على احداث خطيرة فيها جدة وحسم ، وان الواقع الذي تعيش فيه هذه الشعوب يقترب من تلك اللحظات الحواسم التي يتحول فيها ذلك الواقع الى حالة غير معقولة ينبغي ان تزول . ولو رجعنا الى الفترات التي سبقت جميع الحركات الثورية في العالم ، لرأينا ان المفكرين والادباء والمؤسسات الفكرية بأسرها قد شاع فيها هذا الضرب من الشعور الذي نشأ عنه نمط جديد من التفكير ، واستجابات روحية معينة ،هي هذا الذيندعوه اليوم بالحس الثوري أو الروح الثورية ،والذي كان يدعوه ادباء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في اوروبا بالاخطار السياسية . كان الامر كذلك قبل الثورة الفرنسية الكبرى ، وقبل ثورة ١٩١٧ الزوسية . فالحياة الفكرية قبيل هذه الحركات الثورية ومثيلاتها تتخذ موقف « التوقع » او الترقب من ناحية ، وموقفا تحاول ان تتحول فيه الى « قوة دافعة » بالاتجاه الثوري ، من ناحية اخرى . وعندئذ يمكن ان يوصف الاتجاه العام في الفكر بانه ثوري متمرد يعمد الى القلب والتصفية ، برغم المضاعفات الثانوية التي قد تطرأ على الفكر ذاته. ففي اواخر القرن التاسع عشر اهتم ادباء القارة الاوروبية وبريطانيا بحادثة قد تبدو عابرة تافهة للنظرة الاولى . ذلك ان اسكافيا يدعى « هارتمن » قد تفوق تفوقا ساحقا في الانتخابات العامة في « هامبورغ » امام اثنين من المرشحين من كبار الساسة يومذاك . وكان اجماع الكتاب في ذلك الحين ان في جو القارة الاوروبية ، اثر هذه الظاهرة العجيبة ،

مأينلر بوقوع « اخطار سياسية » ـ على حد تعبير ذلك الزمن ـ فكان لهذه الحادثة الصغيرة اثرها في اوساط الكتاب والمفكرين .

ومن هنا نجد ان دراسة الواقع بالذات ، بما فيه من تناقض وانسجام وحيوية ظاهرة ومستورة ، هي وحدها التي تعيننا على تفهم شتيت الاتجاهات في الادب والفكر . وهكذا فان دراسة الواقع العربي لـه الحظ الاوفى والنصيب الاجزل في تفسير هذا النزوع الثوري في الادب العربي في العراق . فالافلاس الروحي الذي اصيب به عدد من ادباء الجيل الغابر ، والخيبة النفسية التي اصيب بها الشعب العربي بأسره على يد المحترفين من الساسة ، والكوارث المتلاحقة الفاجعة ، وعجز النظم الفاسدة عن الاستجابة للبواعث الانسانية لدى الشعب ، والفروق الهائلة بين الكوابيس الحاضرة التي تعيش في ظلالها المقينة جماهير غفيرة من الشعب العربي ، وبين احلام المستقبل ... بين هذه الكوابيس الراهنة واحلام الغد ، اي بين الامكان والتحقق يزداد التوتر في كيان الشعب ، ويتعاظم نزوعه الثوري .

فالعربي ، والعراقي ـ على وجه التخصيص ـ ، والاديب العراقي ، بصفة اخص ، قد وجد نفسه ، على فجأة منه ، امام حالات معقدة شديدة التعقيد ، على نحو تكاد لم تشهده حتى تلك المجتمعات التي صنعت الثورات الكبرى في التاريخ من قبل . وهذا التعقيد الذي تألف من اشتباك سلاسل من المساوىء والمفاسد ، قد ارغم الفكر العربي في العراق ارغاما على ان يعي ذاته وان يعي هذه الطائفة الشتيتة من الاخطار والقوى المعادية من الداخل والخارج،والتي تناصبه العداء والموت والتدمير!

من الداخل ، على الصعيد الاقليمي حيث الرجعية المسرفة في الغباء والتي تمثل فيها ابشع شكل للحكم الجائر الباطش ، الى جانب القوى الاخرى التي استهدفت بشكل منظم ماكر ، محق معالم الشخصية العربية في العراق كالشيوعيين واعوانهم منذ عام ١٩٣٥ ، الذين حرفوا الاذهان عن حقيقة الصراع الذي اخذ به الشعب العربي نفسه من اجل انقاذ حضارته وتحريرها ، وسلطوا الاضواء على صراع سطحي زائف اخر ، برزت على واجهته لافتات تدعو لا الى تحرير الشعب العربي وحضارته، بل الى تحرير الدستور والبرلمان ! .. ومن الداخل ايضا ، على الصعيد العربي حيث الرجعية العربية المتضامنة فيما بينها ، والصهيونية التي تقف تحديا وفحا شاذا للكيان العربي ... ومن الخارج ، على الصعيد الدولي حيث الاستعمار الذي لا يعرف غير الاوراق المالية وصكوك المساومات والمسلح بابرع الوسائل وامكرها لمحق الذاتية وتشويه الكيان القومي .

هذه التحديات السريعة الخاطفة التي انثالت على الكيان العراقي، قد وضعت حدا سريعا حاسما للانحلال والانخذال في الادب العربي في العراق بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . فبدأ الادب العربي في العراق يميل الى ان يكون تنفيسا عن طاقة روحية ضخمة مرصودة في اعماق الشعب العربي ، تحاول الصمود بوجه هذه التحديات الخارقة . اي ان يكون قوة دافعة للصمود بوجه المحنة والالم ... ولا مراء ان اعمق التجارب الانسانية هي تجربة الضمير الصامد بوجه المحنة والالم .

ومن هنا وحيث ان الادب في العراق قد اتخذ موقفا يحاول فيه الاجابة على هذه التحديات ، على اساس حضاري ، وعلى مستوى كياني « هي محاولة على الاقل » ، لذا فانه لم يكن بحاجة الى من يسنده من مصممي الحلول الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، كما هي الحال في المجتمعات الاوربية التي ظهر فيها من امثال ماركس واوين ولاسال وسان سيمون . فالمعركة التي بدأ تمثيلها توا الادب العربي في العراق، هي معركة صون الحضارة العربية واثبات الشخصية العربية ـ الانسانية التي افاقت اليوم ورفضت قطعا ان تلقى مسخا شائها على شاطىء القرون ! وهذه الحقيقة بالذات هي التي جهلها الكتاب الغربيون ، فنظروا اليها نظرة خلوا من النفاذ ، فظنوا ان معركتنا هذه ، لم تتهيأ للغد ولمشكلاته . وقد ذكر مثل ذلك عدد من هؤلاء الكتاب ممن عناهم ما عناهم من امرنا من امثال والترلاكير W. LAQUEUR وغيره .

اما النزعة الانسانية في الادب ، فقد دخلت الادب العربي في العراق خلال الحرب العالمية الثانية ، فاصبح الانسان وازمته المعاصرة هي موضوع الايحاء عند شعراء وكتاب الجيل الجديد ، فظهر اثر ذلك بلند الحيدري والسياب ونازك الملائكة وخالد الشواف وعبد الملك نوري وفؤاد التكرلي . وقد بدأ هؤلاء الادباء وغيرهم ، لا سيما الشعراء منهم يتطلعون الى عالم الحلم الذي قذف الشعب بنفسه في اعماقه ، وهنا وجدنا الشعر يكاد ينشق عن الفن في بعض الفترات ليكون أداة مباشرة من ادوات الثورة والتحريض عليها وتسعير وقدتها ، كما تفعل الخطابة في دفع الجماهير . وهنا علينا ان ننص على حقيقة واضحة في تاريخ الادب العربي في العراق ، ذلك ان الشاعر هناك ، كان دائما ينازع خطيب الثورة مهمته ومسؤولياته . فكان لكل انتفاضة ثورية في العراق، شعراؤها الذين يقفون في الشوارع يخاطبون الجماهير ، ويدفعونها في الاتجاه الثوري بخلاف ما عرفناه في الاقطار العربية الاخرى ، حيث لم يقتحم الشعر سورات الجماهير . فخلال وثبة الشعب العراقي في أوائل عام ١٩٤٨ ضد معاهدة بورتسموث الاستعمارية الجائرة ، وانتفاضته ضد مؤامرة تقسيم فلسطين نزل للشارع عدد من الشعراء منهم الجواهري والسياب والشواف وبحر العلوم وغيرهم ممن كانوا يلقون قصائدهم في الطرقات وعلى ارصفة الشوارع . كما أن ثورة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ العراقية كانت قد جرت الى الشارع من قبل شعراء تلك الفترة في النجف الاشرف من امثال الراضي والرصافي والبصير .اما في مصر فلم يكن اي أثر لثورة عرابي مثلا في شعر البارودي بالرغم من انه كان من رجالها وقد اكتوى بحرورها ، قص مثل ذلك في الشعراء الذين عاصروا او ساهموا في ثورة ١٩١٩ .

ان هذه الظاهرة في العراق ، والتي توشك احيانا ان تجعل الشعر ينفلت من وجهه ليكون قوة ثورية مباشرة ، انما هي ظاهرة لها اسسها التاريخية البعيدة في العراق .

ومع موقف الالتزام الصارم الذي اتخذه الاديب العراقي ، كانت النزعة الانسانية تنمو وتتعاظم ويتمثلها الاديب في العراق منذ بداية الحرب العالمية الثانية . ومن هنا ، اي منذ ان اصبح الانسان ، والانسان العربي بالذات موضوع الادب ، بدأت الظاهرة الملحمية تبرز في الشعر ، فطفق الشعراء الحديثون يقلعون عن كتابة الشعر الغنائي الذي اتسمت به فترة الحرب العالمية الثانية . واستعلنت هذه الظاهرة في شعر السياب كخير معبر عن هذه المرحلة ، فبدا يكتب بالاتجاه الملحمي ويدافع عنه . وهذه الخصيصة تشبه ، الى حد بعيد ، الاثر الذي تركته معركة الارمادا في ادب عصر اليصابات في انكلترا ... ولا ريب ان للشعب العربي ارمادا ثانية يخوض معها المعركة اليوم !

ومن الخصائص التي نلحظها ايضا في الادب العربي في العراق خلال مرحلته الثورية هذه ، انعدام تلك الطلاقة التي لا تعرف الالتزام في آثار الجيل السابق من الشعراء والكتاب . لقد فقد ادباء الجيل

ـ التتمة على الصفحة ١١٩ ـ

ملامح الادب الثوري في العراق

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٤ ـ

الثوري المعاصر في ادبهم ، الطلاقة والحرية والانطلاق والتحرر من المسؤولية والالتزام الانساني ، ولكنه اصبح اكثر ثقلا ، وابعد تحسسا بعمق الشكلة الانسانية التي يقف حيالها الشعب العربي اليوم ، ومن هنا ، من هذا « القيد الجديد » اصبحت اثار الجيل الثوري من الادباء، اعمق تعبيرا عن روح عصرنا الثوري . وذلك واضح بصفة غير مباشرة في آثار نازك الملائكة ، وعلى وجه اشد وضوحا وتعبيرا في اثار السياب وعلي الحلي .

ان هذه الخصيصة يمكن تفسيرها ، بان الادب الثوري في العراق، قد زاد فيه عنصر الشوق والتطلع ، فيما قل فيه عنصر التأمل . ويبدو ذلك بشكل عنيف جائح في معظم قصائد السياب التي يؤكد فيها ارتباط الفردية بالاجيال المتعاقبة ، حتى كأنه يصرخ مستشرفا على اجيال التاريخ ، بانه جزء منها ، يتطلع اليها من اعماق تجربته الجديدة، التي لم تكن سوى حلقة من حلقات تاريخ بأكمله . وهكذا غدا هذا اللون من التعبير ، تعبيرا عن عبقرية هذه المرحلة التي يمكن وصفها بانها « العبقرية الثورية » .

وهنا ايضا ، انتهت وحدة الاسلوب التي كنا نعرفها في أثار الادباء الذين عاشوا قبيل الطليعة الثورية ، فبدت طلائع الاساليب الذاتية المتباينة . فقد كان من العسير في معظم الاحيان ان يميز بين كثير من اثار الرصافي والشبيبي والسماوي والزهاوي والبصير ، اذ كانت تجمعهم وحدة الاسلوب ، ووحدة التجربة . وحتى الجواهري كان موضع جهد في التعيين والتمييز . وقد يرجع السبب في ذلك ، الى انعدام النزعة الانسانية ، التي نشأت منها الدعوة الى الاهتمام بالتجربة الفردية ، التي لا موضع معها للتماثل في الصيغ والاساليب . « فالطلبة في فصل واحد ، يرددون درسا واحدا » ـ كما يقول احد النقاد الفرنسيين ـ وجميع اولئك الشعراء كانوا بمثابة الطلبة في الفصل الواحد ، خضعوا لظروف واحدة ، واستخدموا لغتهم في تجارب متشابهة فيها تطابق وتعميم .

اما ادباء الطليعة الثورية ممن بلغوا نضجهم الفكري قبيل عام الكارثة، ١٩٤٨ ، فقد احسوا بان عليهم ان يقولوا شيئا جديدا ، وان يكتبوا ذواتهم من جديد . وهكذا فاننا لا نكاد نجد اثرا هاما لهؤلاء الشعراء ، بل الادباء عامة يسبق عام الكارثة ... لقد انسلخ الشعب العربي بأسره ، منذ تلك الحقبة ، من جلده القديم ، وقفز للحياة . وهنا احس الاديب العربي في العراق ، كما احس غيره من الادباء العرب بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد عام ١٩٤٨ بالذات ان الشعب العربي يؤلف امة لها سمك حضاري ، وينبغي ان يكون لها دور ايجابي في الحضارة الانسانية ... احس هذا الاديب ان اجيالا متطاولة قد انصهرت جميعا هنا في ارض المعركة . فبدأ ذلك التحول الذي نعرفه في كثير من الاداب الاخرى .. تحول من السلب للايجاب . وادباء هذه الفترة يمثلون تحولا في الادب العراقي كذلك التحول الذي عرفناه مثلا في الادب الايرلندي .. فقد كان توماس ديفيز مثلا يتغنى بايام ايرلندة القديمة ، وباللغة الايرلندية التي كانت تتجاوب بها اركان الجامعات في الايام السالفة . بيد ان الثورة الايرلندية قد جعلت ما قاله توماس افوالامتخلفة ساذجة لا تعبر عن حقيقة الثورة الايرلندية المتعالية ، هذا هو بالضبط ما نكرر في العراق . فالرصافي والزهاوي وحتى الجواهري في كثير من اشعاره وفهمي المدرس ومحمود احمد السيد ويوسف رجيب من الكتاب كان موقفهم كموقف ديفيز من التحسر على الفراديس المفقودة ، اما طليعة الادباء الثوريين فقد بدأوا يحاولون باسلوب وبآخر ، التعبير عن ثورة متصاعدة عميقة حية ، وعن كفاح من اجل ارفع القيم الحضارية التي انطوى عليها صراع الشعب العربي في السنوات الاخيرة . واننا اذ نرى بعض التعثر في آثار هذه الطليعة الثورية ، فان مرد ذلك الى المفاجأة الضخمة السريعة التي انشق عنها جيلنا الحاضر من خلل المعركة الداهمة.

وهناك الى جانب هذه الخصائص الثورية في الادب العربي-في العراق، نجد مضاعفات اخرى ، اخرجناها عن نطاق الاتجاه العام الذي تحدثناعنه. وقد سادت هذه المضاعفات ادب العراق لعدة سنين ، ثم اصيبت بنكسة قاتلة بعد ثورة ١٤ تموز ، اذ فقد الادباء الذين خضعوا لها ، قدرتهم الاعتراضية على النظم والمؤسسات التي افيمت بعد الانحراف الفاجع الذي اصيبت به الثورة . وفي الامكان ان نؤكد هنا ان مثل هذا الاتجاه كان يستمد وجوده من قوة الاعتراض التي كسبها خلال صراعه مع النظام السابق ، وبمجرد ان بطل اعتراضه وتحول الى قوة اسناد ودفع ، اصيب بانتكاسة تكاد تفقده الحياة . ومرد ذلك الى ان هذا الضرب من الادب الذي يمثله الشيوعيون بصفة خاصة ، لم يضع ازمة الانسان العربي ، في الوطن العربي ، موضع اهتمامه ، بل تعداه الى بحث ازمات اخرى مصطنعة ، تنطوي على اشد المعاني سطحية وبعدا عن كياننا الاصيل .

ان ازورار ادباء هذا الاتجاه عن فهم امتنا الضخمة الفنية الحية ، هو السبب في خلو تجاربهم من المضمون الانساني الحق . فان عبد الوهاب البياتي ، وهو افضل معبر عن هذا الاتجاه ، قد اصدر ديوانا كاملا بعنوان « عشرون قصيدة من برلين » قدم له الشاعر التركي ناظم حكمت ، كان خلوا من اي اثر من الآثار النفسية التي تخلفها ازمتنا الراهنة . وقل مثل ذلك في غيره من الشعراء والكتاب الاخرين من امثال طالب الحيدري وحسن البياتي وبافرسماكه فالعيون الطافحة بالنور هي دائما عيون فتيات طاشقند ، والمداخن التي تهب الحياة هي دائما المداخن الرابضة على الفولغا ، والمأساة هي دائما مأساة بوخن فلد ،والثغور الطيبة الباسمة هي دائما ثغور الملايين بين باكوم والقرم !..

هؤلاء هم الذين اثروا الوقوف بوجه تحقيق مصيرنا الحضاري، فحق لنا ان نحذفهم هنا ، كما سنحذفهم هناك .

القاهرة — محيي الدين اسماعيل

صدر حديثا

القومية والانسانية

للدكتور عبدالله عبدالدائم

(طبعة ثانية)

دار الاداب ـ بيروت